مدينة الحب
لا يسكنها العقلاء

ⓒ مركز الأدب العربي للنشر والتوزيع، ١٤٤٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل حمدان، أحمد
مدينة الحب لا يسكنها العقلاء. / أحمد آل حمدان - ط١١ - الدمام، ١٤٤٠هـ
١٤٤ ص؛ ١٤ سم
ردمك: ٩- ٤١- ٨٢٦٣- ٦٠٣- ٩٧٨

١ -القصص العربية - السعودية أ. العنوان
ديوي ٨١٣،٠٣٩٥٣١ ١٤٤٠/٢٧٠١

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٢٧٠١
ردمك: ٩- ٤١- ٨٢٦٣- ٦٠٣- ٩٧٨

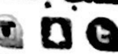
مركز الأدب العربي للنشر و التوزيع



مسؤول النشر :
للتواصل
0597777444

الموقع الإلكتروني :
www.daapd.com
مركز الأدب العربي
@Services_Book
@Services_Book
مركز الأدب العربي
adabarabic7
services_book@outlook.sa

المملكة العربية السعودية- الدمام

لطلب إصدارات مركز الأدب العربي

@Adab_Book
00966594447441

دولة الإمارات العربية المتحدة مكتبة الأدب العربي 00971569767989
مملكة البحرين مكتبة قصر فخر الدين 0097366753587
جمهورية مصر العربية مركز الأدب العربي 00201120102172

مدينة الحب
لا يسكنها العقلاء

أحمد آل حمدان

I_ahmedalhmdan

الطبعة الحادية عشر

١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

لن يفهم سطور هذا الكتاب،
إلا أولئك الذين
قد تجرعوا ذات يوم
مرارة الفراق.
فإذا كُنت لست منهم،
فإن هذا الكتاب لا يعنيك،
أعده إلى مكانه فورًا،
وغادر المكان بهدوء.

إهداء إلى تلك التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة،

إلى تلك التي ليس لها ذنب في هذا الوجع،

إلى تلك التي أحببتها أقل بكثير مما كان يُفترض،

إلى تلك التي كان زواجي بها قريبًا جدًّا،

لولا أن الفراق رفض.

لا أكره في حياتي سوى مقدمات الكتب الطويلة،
وأولئك المُزعجين الذين يقطعون عليّ أوقات القراءة،
وليس بإمكان أحد أن يثير شفقتي،
أكثر من أولئك الكُتاب الذين يضعون،
صورهم على أغلفة كتبهم.

بيد أني حين أنتهي من هذا الكتاب،
سألتقط لنفسي صورة وأضعها على غلافه،
كرشوة لتلك الغائبة التي لا تُحب القراءة.

أعرف أنها لن تصدق عينيها،
لو أنها رأت صورتي صدفة على الغلاف،
وأعرف أنها ستقف في حيرة من أمرها لدقائق حتى
تتأكد من صحة ما تراه،
ثم بعد كثيرٍ من الشك،
ستتأكد من أن صورة الشخص الذي على الغلاف
هو ذاته الشخص الذي كانت تحبه يومًا،

ثم فارقته وهي تعتقد بأنه لم يبادلها شعور الحُب قط.
ولأنها تخاف الناس،
وتظن على الدوام أن الجميع يراقبها ويعلم بما يدور في عقلها،
فأنا على ثقة من أنها ستقوم بأخذ الكتاب سرًّا من على رف المكتبة
وكأنها تقوم بسرقة شيء ما.
وحين يصبح الكتاب في حوزتها،
ستقوم بالتلفت يمينًا وشمالًا كي تتأكد من خلو الممرات،
ثم ستفتحه على مهل، وتتفحص أوراقه بحذر لصٍّ يُحصي
مسروقاته في مكان عام.

وحين تقع عيناها على صفحة الإهداء،
ستند عنها صرخة تلفت إليها الأنظار.
وكأنها لم تصدق بأن الأحمق الذي
كان على الدوام يتجاهلها ولا يكترث لأمرها
قد قام بكتابة هذا الكتاب لها ومن أجلها؛
ليخبرها فيه بأنه آسف على كل ما مضى،
وبأنه كان ولايزال يُحبها.

نعم، لقد أحببتكِ كما لم أحبب شيئًا أبدًا،
ولكني تعلمت بعد أن صُفعت من الحياة ذات مرة،
أن أواري مشاعري وأخفيها عن الجميع
وكأني أخفي عنهم آثار جريمة.

ولكن الآن وبعد أن حرمتني التقاليد منكِ،
وبات الوصول إليكِ أمرًا لا يحدث إلا في الأحلام،
لا أعتقد أن ثمة سبيلاً آخر
أستطيع أن أخبركِ فيه بما يعتمل في قلبي،
إلا بهذه الطريقة المحفوفة بالمصاعب و(الأخطار).

الساعة الدائرية فوق طاولتي تشير إلى الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الفراق،
وأنا أجلس في شرفة بيتنا، على ذات الكرسي الخشبي العتيق، الذي اعتدت أن أحادثك دائمًا وأنا أجلس فوقه.

أضع قلم الرصاص خلف أذني، وأمامي تتمدد الأوراق البيضاء،
والتي كلما فكرتُ فيكِ،
هبت الرياح، وداعبت أطرافها بقسوة تشبهُ قسوة حنيني إليكِ.

أغمض عيني، أشابك يدي الباردتين، أرفع رأسي نحو السماء، وأردد ترنيمة خافتة، تشبه ضوء القمر الفضي الناعم، الذي يضيء الأرجاء:

«*يا أيتها الأقدار،*

صالحيني ولو مرة،

فقد أخطأ الفراق بحقي كثيرًا،

هذا الكتاب رسالة إلى تلك الغائبة،

تلك التي لم أعد أعلم عن أمرها شيئاً،

تلك التي ماعاد الوصول إليها ممكنًا،

يا أيتها الأقدار،

دعيها تمضِ بمحاذاة هذا الكتاب،

دعيها تلتفت إليه،

دعيها تتعرف على صورتي المطبوعة على غلافه،

دعيها تُمسك به،

وتقرأه لتعرف أنها في غيابها كانت دائمًا معي،

وأني أحببتها ولا أزال وسأظل أحبها إلى الأبد».

حين انتهيت من ترديد الترنيمة، فتحت عيني، أخفضت رأسي، فصلت يدي المتشابكتين،

أشعلت شمعة لترى الحروف طريقها جيدًا فوق الأوراق،

اجتذبت قلم الرصاص من خلف أذني،

وقبل أن أشرع في الكتابة،

شعرت بشيء يقف خلف كتفي،

نظرتُ إليه من زاوية عيني، ومن غير أن أحرك رأسي،

فإذا به طيفك الذي جاء كعادته ليختلس النظر على ما سأكتبه لكِ.

إبتسمت بحزن، وتظاهرت بأنني لم أكتشف أمره؛

لأني خفت أن ألتفت نحوه فيختفي كعادته.

قربت يدي من الأوراق بخوف طفل يمد يده نحو حية أليفة لأول مرة في حياته. استغرقت في التفكير قليلًا، وبعد كثير من التردد كتبت على صدر أول ورقة:

«مدينة الحُب لا يسكنها العقلاء».

ثم بدأت الكتابة:

«كيف أنتِ؟

وكيف هي الأيام بدوني؟

هل تمكنتِ من تخطي تلك المادة الصعبة؟

وهل لا زلتِ تُقبلين صورتي سرًّا قبل أن تنامي؟

وهل توقفتِ عن كتابة أول حرف من اسمي

على مرآة الحائط الذهبية كل صباح قبل أن تذهبي إلى الجامعة؟

وهل تعلمين أن الحياة باتت مُملة بدونك، مثل أداء واجب مدرسي؟

وهل تعلمين أني اشتقت إليكِ؟».

اكتشفت في هذا الغياب،
أن الفراق أحيانًا يكون مفيدًا،
فهو يجعلنا نشعر بقيمة أولئك الذين ما كنا نلقي لهم بالاً،
أولئك الذين فارقونا قبل أن ندرك بأننا لا نقوى على العيش بدونهم.

لو عُدتِ لي،
أعدكِ أن أحبكِ بطريقة أفضل...

كُنت طائشًا، قبل أن ألتقي بكِ،

ذئبًا كبقية ذئاب بلادنا العربية،

أنهش قلبًا،

أمزق روحًا،

أجيد الكذب على الفتيات،

لدرجة أني كنت

أصدق كذباتي في أغلب الأحيان،

لم أكن يومًا وفيًا إلا مع الأصدقاء،

لم أكن يومًا صادقًا إلا مع الأصدقاء،

لم أكن يومًا إنسانًا إلا مع الأصدقاء،

لا تتفاجئي.

فأغلب رجال الشرق هكذا،

هم دائمًا في حرب مع الإناث،

وكأن بينهم وبين النساء عداءً سابقًا،

أو ثأرًا قديمًا وقد أوصاهم الأجداد بأن لا يصالحوا،

ولهذا السبب فقط،

تجدين أبأس الفتيات،

هي الفتاة التي تحب رجلًا شرقيًّا،
فهم زيادة على ذلك يغيبون فجأة،
ويرحلون من غير أن يستأذنوا،
ويعودون متى ما أغلقت الحياة أبوابها في وجوههم،
ويرون دائمًا أنهم على حق،
وأن الدنيا وُجدت لهم وحدهم،
وأن الأرض لا تستقيم من دونهم.

ثم ذات مساء،
دعت لي أمي،
بأن يصرف الله عني كل شر،
ويهيئ لي كل خير.
فسقط الجميع فجأة،
وجئتِ.

حين التقت عيناي بعينك،
أدركت بأني تورطت،
أدركت بأنه لا مناص
من مواجهة عاصفة حُب،
تُبعثرني،
وتعيدُ خلقي من جديد،
لكِ عينان كما فخ،
كل من نظر إليهما وقع.

تعالي أبوح لكِ بسر؟

«لم يمضِ على لقائنا الكثير

حتى محوتِ كل من كان قبلكِ،

وتربعتِ على القلب،

وحدكِ لا شريك لكِ.

محوتِ لي ذاكرتي العاطفية،

المترعة بنساءٍ ما كُنت أظن

أن في مقدور الذاكرة نسيانهن،

وجعلتنِي رغمًا عني أكتفي بكِ وحدكِ

أنا الذي فتاة واحدة لم تكن لتكفي رجولتي،

تبًا لكِ يا عزيزتي!!

من هي فتاة المستحيل التي ستحل مكانكِ؟

لقد رفعتِ سقف الاكتفاء، حتى بات سقف اكتفائي عاليًا،

وبات إرضاء ذوقي أمرًا صعبًا جدًّا،

بصعوبة أن تجدي شأبًا شرقيًا متزوجًا،

يجيب بـ«نعم»

حين تسأله فتاة حسناء:

هل أنت مرتبط؟».

هناك شخص واحد فقط،
حين نلتقي به،
ندرك أن الله راضٍ عنا.

ولأني أحببتها بصدق،
فقد قررت أن لا أعبث بها،
فطرقت باب بيتهم،
ولم آتِ من النافذة،
فالحب الحقيقي يأتي من
أبواب المنازل،
ولا يأتي من نوافذها.

ولكن لأن الحب لا يستمر إلَّا في الحكايات القديمة
كان لزامًا عليهم أن يسعوا إلى فراقنا.

ألقوا القبض على الحُب سريعًا،
وقادوه إلى مشنقة
نصبوها له في الساحة العامة للحقد،
أصعدوه على مصطبة متحركة،
لفوا على عنقه حبل الفراق،
ثم ركلوا المصطبة التي كان يقف عليها
من غير أن يتيحوا له فرصة البوحِ بآخر أمنية.
سقط الحُب،
وقبل أن تلامس قدميه الأرض
اشتد الحبل على عنقه فأختنق،
مكثوا ينظرون إليه قليلًا
وحين ظنوا أنه مات
رحلوا وتركوه مُعلقًا في الهواء.
ظللت أنا وهي وحيدين في الساحة،
ننظر إلى الحب بفزع طفلٍ وطفلة
كانا شاهدين على موت والديهما الذي شُنق ظلمًا للتو.
ولكن فجأة فتح الحُب عينيه ونظر إلينا

وهو يبتسم ويومئ لنا بعدم الكلام،

مد يدًا حل بها الحبل المعقود على عنقه،

نظر إلينا مرة أخرى،

أرسل نحونا قبلة هوائيـة،

ثم غمز لنا بعينه،

وحلق بعيدًا نحو السماء!

وهو يردد:

«سأعود إليكما».

صرخنا نحوه في نفس الوقت:

«متى؟»

ولكنه أكمل تحليقه ولم يجب.

ليتهم يعلموا،
أن الحُب لا يموت خنقًا،

ولا يموت بالرصاص،

ليتهم يعلموا،
أن الحُب هو الشيء الوحيد الذي

نجهل كيف يبدأ،
والشيء الوحيد الذي حين يبدأ،
لا يعرف الانتهاء.

بدلًا من كُل هذا العناء،
كان حريًّا بهم أن يتركوا الحُب في سلام،
أوَلم يقرؤوا قول الرسول - عليه السلام -:
«ما رأيت للمتحابين مثل النكاح»؟

بعد الفراق ندمت كثيرًا يا عزيزتي،
لأنه كان هناك حُب كبير في قلبي،
لم أظهره لكِ،
ندمت كثيرًا،
لأنه كان ثمة كلام كثير
ينام على شفتي،
ولم أوقظه لكِ،
بعد الفراق ندمت على كل مرة أغضبتكِ فيها
وعلى كل مرة كنت فيها أقلَّ
مما كان ينبغي عليَّ أن أكون.
لو كنت أعلم بشأن هذا الفراق
الذي كانت تخفيه لنا الأيام،
لربما كنت أقل حماقة،
أقل غضبًا،
أكثر حكمة،
وأكثر حبًّا.
لكن يبدو أنني لن أتعلم الدرس أبدًا،

وسأظل مثل بقية الناس،
أجهل قيمة ما عندي
حتى يضيع من يدي.

لا أذكر كم مضى على هذا الفراق،
هم يقولون عامًا،
وقلبي يصر على أنها مئات الأعوام،
ماذا أفعل واليوم بدونك يسير كما سلحفاة بليدة،
قررت ذات ضجر،
أن تسير إلى الضفة الأخرى من العالم؟

آسف لأني رحلت عنكِ وتخليت،
في حين أنه كان يجب علي أن أقاتل من أجلك،
آسف،،
آسف،،
آسف،،
فقد علمني الشرق
أن أكون جبانًا في حبي،
كريمًا في جروحي،
شحيحًا في عواطفي.

حين ابتعدنا قال لي أحد أصدقائي،
لا تحزن فإن أمر المؤمن دائمًا في خير،
ولكن قولي لي، أين الخير في هذا الغياب؟

ما دام صوتي لا يصل إليكِ،
فسأظل أكتب وأكتب،
وأبثُّ لكِ في كل كتاب سرًّا
لن يعلمه سواكِ أحد،
سأكون مشهورًا في يومٍ ما،
ليس حبًا في الشهرة ولكن،
كي يتسنى لكِ أن تتقصي أخباري عبر التلفاز!
وإن لم أستطع أن أكون مشهورًا،
فسأرتكب جريمة كبيرة،
ليس انتقامًا من المجتمع ولكن،
حتى يتسنى لكِ أن تتقصي أخباري عبر الصحف ونشرات
الأخبار!

لماذا على الأقل لم يتيحوا لكِ الوقت الكافي للوداع؟
ذهبتِ فجأة من غير أن نتفق بشأن هذا الغياب،
هل أستسلم أم ثمة غدًا لقاء؟
هل أبقى في مكاني أم أفرد أشرعتي
وأرحل عن مرافئ الانتظار؟
كم أخاف الرحيل
فتعودين في الغد إلى هذا المكان
ولا تجدين لي أثرًا ولا عنوان،
وحين تحاولين اقتفاء أثري،
تجدين خطواتي وقد محتها الرمال،
وحين تسألين الغرباء عني،
يُجيبونكِ:
«اسألي الرمال».

آه يا عزيزتي، أكاد أجن حين أتخيل خاطبك القادم!
يجلس في ذات المكان الذي جلست فيه،
بثوبه المنشأ،
وعمامته التي تسلفها من أخيه،
وعطره الذي له رائحة حذاء جديد،
وساعته الذهبية التي لا تشير إلى الوقت الصحيح.
أتراه سيعلم أن قلبكِ لي،
وأن إخلاصك سيظل لي؟!
كيف سيراكِ عند النظرة الأولى؟
وهل سيتمكن من رؤية وجهي الحزين في عينيكِ،
ودمعتي على خديكِ،
واسمي الثلاثي مكتوبٌ على شفتيكِ؟

ماذا لو تزوجت أنا بعد عشرة أعوام
بفتاة يقول عنها الناس إنها فتاة جميلة؟
كيف لي أن لا أراها أنتِ؟
كيف لي أن لا أناديها بحروف اسمك؟
كيف لي أن أقف إلى جوارها
وأنظر نحو صورتنا المنعكسة
على المرآة، فأرى نفسي واقفًا
ولا أراكِ إلى جواري واقفة؟

لماذا تطاردني رائحتك أينما ذهبت؟
تُقيد أطرافي، تُعيدني إليكِ رغمًا عني كأسير حرب،
لماذا أراكِ في كل شيء
وكأن الأشياء كلها فجأة أصبحت أنتِ؟!
قبل البارحة كنت جالسًا أمام البحر،
أشاهد بصمت أشعة الشمس الذهبية المتمددة فوق الماء،
وفجأة لمحتكِ تقفزين من موجة إلى موجة
كحورية حكى لي جدي الصياد عنها ذات مرة.
ثم رأيتكِ فوق إحدى الصخور تجلسين
تُسرحين شعركِ الأسود الطويل
بينما كنتِ نحوي تنظرين،
ثم وبعد قليل من نظرات الحنين
اختفيتِ ولم يعد لكِ أثر على تلك الصخرة،
ولم تعودي إلى القفز من موجة إلى موجة.
لماذا تظهرين لي تارة،
وتارة تختفين؟!
ربي قد مسني الحنين،
وأنت أرحم الراحمين

تعالي نتخيل..
ماذا لو التقينا بعد عشرين عام
ذات صدفة في مكان!
أنا مع عائلتي الكبيرة، التي كان
من المفترض أن تكون منكِ،
وأنتِ إلى جوار الرجل الذي
لا زال قلبُكِ رغمًا عنكِ يناديه باسمي،
ماذا سأفعل حين أنظر إلى أبنائك
الذين كانوا من المفترض،
أن يكونوا أبنائي،
والذين لفرط ما أحببتِني،
لا أظنهم سيشبهون أحدًا غيري؟.
ماذا سيحدث لكِ
حين تشاهدين طفلي وهو يحبو إليكِ
وهو يتسلق قامتك،
يرفع رأسه،
ينظر إلى عينيكِ تارة

ويلتفت فينظر إلى عيني تارة أخرى،
ثم يعيد النظر إليكِ مبتسماً
وكأنه اكتشف سرنا الكبير،
فيقول لكِ بصوت يشبه مواء قطة جائعة:
«ماما»؟

ماذا لو استهزأت بنا الأقدار
وأتاحت لنا دقيقتين
في مصعد أحد الأبنية الشاهقة؟!
ماذا ستقولين لي؟
وكيف ستنظرين إليَّ؟
هل أستطيع التحدث إليكِ،
أم لا لأنكِ أصبحتِ امرأة غيري؟
«ليس ثمة شيء أقسى على الرجل
من أن يأخذ أحد منه فتاته التي لا تريد غيره».
هل ستقولين لي إنكِ لا زلت تفكرين بي؟
هل ستهندمين ملابسي؟
هل ستبدين إعجابكِ بتسريحتي؟
هل ستلاحظين همي،
وصورتكِ المطبوعة على وجهي؟
هل ستشفقين على الشيب الذي بدأ يزحف نحو شعري؟
هل ستقرئين حروف اسمك الأربعة محفورة
داخل التجاعيد التي تمددت حول عيني؟

هل ستقولين لي إنكِ لا زلتِ تحبينني،
أم ستعاتبينني لأنكِ شاهدتني مع امرأة،
تدعي الأوراق الحكومية أنها زوجتي؟
يجب عليكِ من الآن البدء في تحضير الكلام الذي ستقولينه لي
حين تدبر لنا الأقدار بعد عشرين عاماً
موعدًا في مصعد أحد الأبنية الشاهقة،
يجب أن تكوني مستعدة متأهبة؛
لأن الأقدار يا حبيبتي تهوى السخرية.

رسالة قصيرة إلى أولئك الذين كانوا السبب في هذا الفراق:

«أنتم تتوهمون انطفاء النار،

في حين أنكم لم تزيدوها إلا حطبًا،

فالحب هو النار التي كلما حاول أحد إخمادها،

زادت توهجًا وتضاعف اشتعالها».

تعالي نتخيل..

أنا بعد أربعين عاماً،

حين أصبح على حافة الستين،

أتمدد فوق سرير كان من المفترض أن يكون سريركِ،

غارقًا حتى رأسي في رائحة الشيخوخة،

أنظر إلى الحائط الذي

عُلقت عليه لوحة زفاف حزينة،

فيها صورة لشابٍّ كنت أشبهه،

يقف وقفة جنائزية،

يمسك بيده اليسرى باقة ورد ذابلة،

ويصطنع على وجهه ابتسامة باردة،

ويلقي القبض بيده اليمنى على أصابع امرأة ليست أنتِ.

وحين يؤلمني النظر إلى تلك الصورة،

أنتزع بصري منها،

وآخذ نفسًا عميقًا،

ثم أرفع يدي؛

لأمسح بها دمعة تزحف على خدٍ جاف،

مل وهو يصلي صلاة الاستسقاء
من غير أن تهطل عليه قبلاتك.
ألتفت إلى اليمين،
فأجدكِ مستلقية على بطنك،
تسندين وجهكِ على يديكِ،
تنظرين نحوي بعينيكِ المشاغبتين
وتحركين شفتيكِ المكتنزتين بلا صوت:
«أحبك».
وحين أمد أصابعي المجعدة كي أمسك بكِ تختفين

الرجل متعدد العلاقات،
هو رجل فقد ذات يوم امرأة كان يحبها،
وسيظل ومن غير أن يعلم،
يفتش عنها في دهاليز كل امرأة يلتقي بها،
ولن يرضى بغيرها مهما حدث.
لذلك حمقاء هي الأنثى التي تفتش عن الحب،
في قلب رجل فقد امرأة كان يحبها.

أحيانًا يكون الرجل متعدد العلاقات،
هو رجل لم يجد الأنثى التي يبحث عنها،
وفقط حين يجدها، سيوقف عملية البحث من تلقاء نفسه،
ومن غير أن يطلب أحد منه ذلك.

حين يلتقي الرجل بالأنثى المناسبة
فإنه سيكمل طريقه معها،
من غير أن يقف في وجهه شيء،
ولن يخونها أبدًا،
وسيحبها وكأنها آخر إناث الدنيا،
وكأنها الأمل الوحيد لإستمرار البشرية،
لذلك، على الأنثى التي تكتشف خيانة الرجل،
مغادرته فورًا،
لأنها يجب أن تعلم بأنها ليست هي المرأة التي يبحث عنها.

الخيانة لا تقتصر على ممارسة الجنس فقط،
هناك خيانات نقترفها كل يوم
ونحن لا نشعر بها،
وهناك أخطاء عادية جدًّا،
ولكننا بجهل نعدها خيانة.

لا يوجد ثمة قائمة بأنواع الخيانات،
فقط حين تشعر بأن شيئًا
أشبه بسكين تخترق قلبك فجأة،
إعرف أن هناك من يخونك.

لا توجد في الدنيا خيانة مكتملة،
للخيانة صوت سيسمعه الجميع في نهاية المطاف،
ولكن يلزمه القليل من الوقت حتى يصل إلى الآذان.

لو كُنت سياسيًّا لأصدرت قرارًا
بالقبض على كل من تثبت عليه الخيانة،
لأن الشخص الذي يكون في مقدوره خيانة الحب،
هو شخص في مقدوره خيانة الوطن.

هناك دائمًا فتاة غائبة خلف
كل ضياع يحل برجل،
وهناك دائمًا رجل غائب خلف
كل ضياع يحل بفتاة.

لا يوجد هناك أشخاص سيئون من الفراغ،
فكما أنه لا يوجد دخان من غير نار،
فإنه لا يوجد شخص سيّء،
من غير وداع حطم مجاديف قلبه في أحد الأيام.

تعالي نتخيل،
أنا بعد خمسين عامًا،
عندما أصبح على مشارف السبعين،
أجلس وحيدًا في منزلي الكبير،
أمد أصابعي التي تبدو وكأنها
كانت مغطسة لفترة طويلة في كوب من الماء،
أمسك بها ألبوم الزفاف الذي يضم صوري

حين زفتني خيبة الحياة إلى امرأة غيرك.
أجتذب الألبوم إليَّ،
أفتحه بحذر من يبطل مفعول قنبلة،
أقلب الصور
صورة تلو الأخرى،
أؤكد لكِ أنني سأراكِ في جميع الصور،
ستكونين الفتاة التي تلبس الفستان الأبيض
والتي تجلس في حضني بقدم فوق قدم!
ستكونين الفتاة التي أسقتني العصير،
والتي مدت لي قطعة الحلوى على مهل،
سأسمع صوتك ينبعث لي من كل زوايا الصور،
يقول لي بنبرة فيها تحدٍّ وثقة:
«أنا لك وأنت لي».

الشوق يجبرني في هذه اللحظة أن أتمنى لو أني كنت نملة،
تتسلل إلى بيتك ليلًا من غير أن يشعر بها أحد،
تختبئ خلف عطورِكِ بحرفية جاسوس،
وتراقب وجهك الكسول النائم بحب،
تتسلقكِ على أطراف قوائمها بمهل،
من غير أن تحسي بها،
وتحتضنكِ بلهفة أم التقت بعد زمن بابنها المفقود.
ثم تتخذ من خزينة ملابسك مخبأً لها،
تشير إليكِ من فوق الرف بأحد قرون استشعارها،
وتقول بفخر لبقية أسراب النمل:
- هذه حبيبتي.
وفقط حين تستشعر بأن هناك من سيتزوجك،
تلقي بنفسها تحت قدميكِ،
لتموت قبل أن ترى شخصًا يأخذكِ منها.

قبل عدة أيام مددت يدي،
نحو الصندوق الخشبي الذي أحتفظ بأشيائك في داخله،

عالجت القفل السري

الذي لا زالت كلمة مروره هي ذاتها

حروف اسمك الأربعة،

تناولت من جوفه

ورقة كنتِ في الماضي قد كتبتِها لي بخط يدك:

«أنا لك، وأنت لي، سأحبكَ للأبد..»

أغمضت عيني،

وجعلت أتذكر ارتعاشة يدك حين سلمتني تلك الورقة.

وعندما آلمتني الذكريات،

فتحت عيني،

وحركت رأسي وكأني أريد أن أطرد منه الذكرى.

أعدت الورقة إلى مكانها

بحرص أم تضع طفلها النائم داخل سريره.

أقفلتُ الصندوق الخشبي وأوصدت قفله جيدًا،

وقبل أن أنهض من مكاني

سمعت صوتكِ يتسرب من داخله.

كان دافئًا مثل كوب حليب، وهو يقول لي:

«أنا لك، وأنت لي، سأحبكَ للأبد..»

أنا بخير؟
كذبة اعتدت قولها،
حين يسأل الناس عن حالي،
أنتِ فقط من كان يسعني أن أقول له
ما في قلبي،
من دون كذب وزيف،
تعالي لأخبركِ
أني لست بخير،
نعم لست بخير،
فهذا الغياب
يدمرني، يؤلمني، يقرض عظامي،
لست بخير،
أنا مريض بكِ،
أريدكِ،
أحتاجكِ،
قولي لي يا جنتي،
لماذا قذفوا بي

خارج أسوارِكِ،
وأنا لم يوسوس لي الشيطان،
ولم أقرب أشجارك؟!

«لم أشتق إليكِ فقط،

بل اشتاقت إليكِ جميع أشيائي،

البارحة رأيتُ ابتسامتك على رغوة القهوة،

كانت جميلة مثل غيمة تسبح في سماء مدينة صيفية ساخنة.

حين انتهيت من احتساء القهوة،

مد لي النادلُ منديلًا كي أمسح به الرغوة العالقة على شاربي،

ولكنني لم أفعل.

وكيف لي أن أمسح شيئًا رأيتكِ فيه؟!

كان الأطفال في الطريق،

يشيرون بأصابعهم الصغيرة نحوي ويضحكون،

لم يضحكوا لأن منظر الرغوة على شاربي كان مضحكًا،

بل لأنهم مثلي، رأوا جمال ابتسامتكِ على الرغوة».

هناك شخص واحد فقط نقع في حبه،

وكل ما يأتي بعده للنسيان.

كلما تقدم بنا العمر،
كلما ندمنا أكثر على كل لحظة
كان في استطاعتنا أن نقول لأولئك الغائبين
كلمة حُب ولم نقلها لهم.

تعالي نتخيل..

ماذا لو طال بنا العمر إلى الثمانين،

ودهس القطار زوجكِ،

والتهم الحوت زوجتي،

وبقينا عجوزين أعزبين،

وبات القرار لكِ،

وجئتك أطلب الزواج منكِ.

هل تقبلين بي زوجًا؟

أتخيلك وأنتِ تديرين وجهكِ للجهة الأخرى

كي تداري عني احمرار خديكِ،

ثم تومئي لي بالموافقة.

ماذا لو رتبت لنا الأقدار

زواجًا متأخرًا؟

أين سنقضي شهر العسل؟

إلى أي المدن تريدين السفر؟

أقسم بأني سأقول لكِ كلامًا

لم تسمعه أذن بشر!

سنسافر بعيدًا إلى جزر القمر،
سنسبح كثيرًا في ماء النهر،
ونتمدد على رمال الشاطئ
كتمساحين عاشقين فارقهما الضجر،
نسير في شوارع الربيع الليلية وكل واحد فينا،
يمسك مظلة احتراز المطر،
نسير متشابكي الأيدي،
فوق أرصفة الضباب،
بخطوات بطيئة
ونحن نتمنى في قلوبنا أن يطول المشوار
أو أن لا نصل إلى وجهتنا أبدًا،
نخاف على بعضنا كثيرًا قبل أن نقطع الطريق،
وحين نصل إلى الضفة الأخرى
أمسكك من خصرك كي أساعدكِ على تخطي عتبة الرصيف،
ثم نكمل السير تحت أشجار البرتقال،
وحين نرى العشاق وهم يتبادلون القبل والأسرار
نبتسم على حياء ثم نكمل المشوار،

وحين تهطل علينا الأمطار،
لا نفتح المظلات،
بل نتصدق بها على الفقراء
وندع قطرات الأمطار تغسلنا،
حتى تُزيل عن أجسادنا غبار الشيخوخة،
فنعود شابين كما كنا في سالف الأزمان.
حين أكون في الثمانين،
هل سيكون في مقدوري أن أجذبكِ
كما كنت أفعل بسهولة عندما كنت شابًّا؟
هل ستغريكِ حينها ذقني الرمادية؟
وظهري المقوس إلى الأمام بفعل القراءة والكتابة؟
هل ستغريكِ مفاصلي التي تصدر أنينًا
يشبه أنين مفاصل باب لم يُفتح منذ زمن؟
ألن تنفري من رائحة الموت العالقة فيَّ،
وشفتي الضامرة العابقة بطعم القهوة والسجائر،
وفمي الذي سيبدو حينها كإسفنجة حانة قديمة؟
وتلك التجاعيد التي حفرت لها أخاديد عميقة حول عيني؟

هل سيغريكِ جسدي المنتهي الصلاحية؟
وجلدي الأشبه بجلد سلحفاة ميتة؟
ألن يزعجكِ تذمري؟
وصوت العصاة التي أتوكأ بها؟
والبحة العالقة في صوتي؟
وأذني التي لا أسمع بها جيدًا؟
والنمش الخفيف على وجهي؟
وغضبي حين أفتش عن طقم أسناني الذي نسيت أين وضعته؟
أتخيلكِ وأنتِ في الثمانين!
تبدين فاتنة،
عصية على الأيام،
وكأنك عقدتِ هدنة مع الزمان،
فبات يمضي بجواركِ من غير أن يمسكِ!
أتخيلكِ فتاة مراهقة في الثمانين من عمرها،
مجنونة، لا تزال عليها آثار الصبا والشباب،
فتاة في الثمانين جميلة،
لها عينا قطة منزلية،

وأنف مستقيم كما هو الحق،
وجسد خُلق ليكون ساعة رملية،
فتاة في الثمانين كانت متزوجة،
ومات زوجها مدهوسًا بالقطار،
ثم تزوجها حبيبها،
بعد أن التهم الحوت الطيب زوجته،
ليكتشف أنها لا تزال تحبه مثل تلك الأزمان،
ليكتشف أن في الغياب لم يطأ قلبها إنسان،
ليكتشف أنها ما فقدت يومًا الأمل وما ملت لحظة الانتظار!

الحب:
هو الصفقة التي نراهن عليها بكل ما نملك،
ونحن نعلم جيدًا أنها صفقة خاسرة!

الحنين..
هو معطف شتوي ثقيل
نرتديه رغمًا عنا،
ونسير به حفاة الأقدام،
تحت وطأة شمس صيفية حارقة.

يا إلهي، كم أحن إليكِ في هذه اللحظة!
وإلى صوتكِ الذي يشبه جمال النشيد الوطني،
وإلى عطركِ الذي ما داعب أنفي قط،
وإلى وجهكِ الجميل الذي يشبه
قصصًا كانت ترويها لي أمي في أزمنةٍ مضت.

في كل قلب طفلة مشاغبة
تدعى الحنين،
تستيقظ ليلًا،
تعيث فيه الفساد،
تُبعثر أوراق الصبر،
تحطم الأشياء بقسوة،
تمسك قلمًا،
تكتب على حيطان القلب،
جميع وعود الحب الأبدية
التي قطعناها على بعضنا ذات يوم،
والتي أرغمتنا الأقدار لاحقًا على نكثها.
وحين نقول لتلك الطفلة المشاغبة نامي،
تلتفت صوبنا وتحدق فينا لدقائق
ثم تخرج لسانها وتهزأ بنا،
وتعود غير مبالية لكتابة وعود الحب الأبدية
على حيطان القلب،
تلك الوعود التي قطعناها ذات يوم
ثم أرغمتنا الأقدار لاحقًا على نكثها.

في فصل الحنين،
يصبح العطر أخطر من قاتل مأجور
يترصدنا خلف نافذة مواربة.

استيقظ فزعًا في منتصف الليل،
لأن صوتكِ
يتسرب من تحت الباب،
من فتحة النافذة،
من ثقوب الذاكرة،
من أسفل الوسادة،
يوقظني، يقول لي:
«كفاك نومًا، اشتقتُ إليك»

لفرط ما أحن لكِ،
أشعر بأن جينات الحنين
ستنتقل عبر الوراثة لأبنائي،
فيكبرون وهم يحنون لامرأة لا يعلمون من هي
ولم يحدث لهم أن رأوها في حياتهم قط!

كل يوم في غيابك،
تصرخ أشياؤكِ في وجهي
حين أدخل إلى غرفتي،
كأم تصرخ في وجه ابنها الأكبر،
بعد أن جاء إلى البيت وقال لها،
بأنه أضاع أخته الصغرى في الشارع ولم يعثر عليها.

أنتِ السمكة التي،
ستظل إلى نهاية العمر،
تسبح في أعماق الذاكرة،
كسمكة عصية على الموت والنسيان.

الذاكرة،
هي الشيطانة التي لا تحرقها التعاويذ،
هي اللعنة التي ستظل تهاجمنا
حتى ونحن أموات في قبورنا.

لماذا حين أقف أمام المرآة لأهذب شعري،
أراكِ خلفي تجلسين على حافة السرير،
مبتسمة وتنظرين نحوي بإعجاب،
وكأنكِ تقولين لي:
«كم أنت جميل!».
وحين ألتفت إليكِ لا أجدكِ؟
لماذا حين أكون نائماً،
أشعر بكِ تداعبين ذقني بأظافرك
كما لو أنك تداعبين وبر قطٍّ أليف،
وحين أفتح عيني لا أجدكِ؟
لماذا أراكِ في قنينة عطري،
في ساعة معصمي،
في الزجاج الأمامي للسيارة؟
لماذا ألمحكِ على قارعة الطريق تومئين لي بالتوقف،
وحين أتوقف لكِ تهربين؟!

أصبحتُ كل ليلة أكتب اسمكِ ثم كلمة «أحبُكِ»
على جميع أوراقي،
منذ اللحظة التي اكتشفتُ فيها،
بأن طيفكِ يأتي للتجسس على كتاباتي بعد أن أنام.

حين أموت،
قولي لهم أن يدفنوني في إحدى غمازتيكِ،
أو تعالي وأهمسي لي:
«أحبُّك»،
فربما حين أسمع صوتكِ،
أفيق من موتي

حين أكون في قبري سأتذكركِ..
سأراكِ في ظلمة القبر،
وأسمع صوتك يخترق صمت المكان يقول لي:
«أنا لك وأنت لي»
ربما لن أتمكن من الحركة،
لأن المكان حينها سيكون ضيقاً،
ولكني سأكون سعيدًا،
لأنه لا زال في استطاعتي أن أسمع صوتكِ.
لن أنساكِ حتى لو بدأت دودة الأرض في التهامي،
لن أنساكِ حتى لو عثرت عليكِ دودة الأرض في ذاكرتي وقامت بالتهامك؛
لأنك فتاة لا تعيش في الذاكرة فقط،
بل تعيش في كل ذرة من ذرات جسمي،
ولذلك ستظلين حبيبتي،
حتى بعد أن تختلط عظامي بالتراب،
وحتى بعد أن أجوب العالم كغبار.
سأظل أردد اسمكِ بصوتٍ عالٍ بينما تطير ذراتي مع الهواء،

وسأجعل العالم كله يسمع اسمكِ كلما هبت الرياح،
ليعلم العالم كله أنني كنت أحبك ولا أزال،
وأن شيئًا لن يوقف حبي لكِ حتى ولو كنت مجرد غبار!

أذكر ذات مرة،

كنا نتحدث عبر الهاتف،

وسألتِني:

«ماذا لو قررت بمحض إرادتي الرحيل عنك؟».

قُلت لكِ بتكبر:

«من يرحل بإرادته لن أهتم لرحيله».

بيد أنني الآن ندمت كثيرًا على إجابتي تلك.

لو عادت بنا الأيام،

وسألتِني مرة أخرى:

«ماذا لو قررت بمحض إرادتي الرحيل عنك؟».

سأقول لكِ:

«لا يجوز، لأني رجل مؤمن، وفي الإسلام

لا يجوز قتل المؤمن عن طريق العمد!».

وفي محاولة للنسيان،
قمت بالتخطيط للسفر بعيدًا،
عن مدينة كل طرقاتها تنتهي إليكِ،
ولكن وأنا في المطار،
اكتشفت بأنك تختبئين داخل حقائبي،
وداخل جيوب بنطالي ومعطفي!
وكان صوتكِ هو النداء الأخير،
الذي طالب من المسافرين
التوجه إلى بوابة الطائرة،
وعند البوابة كنتِ أنتِ وليس غيركِ
من قص لي تذكرة السفر،
وعلى متن الطائرة،
كُنتِ الربان،
وطاقم الضيافة،
وكنتِ أنتِ وليس غيرك
من قادني إلى مقعدي،
وكان صوتكِ هو الصوت الذي

رددت مع المسافرين
خلفه دعاء السفر
في رحلتي،
كُنتِ المجلة التي أتصفحها،
والرواية التي أقرأها،
والمرأة التي تجلس إلى جواري،
وحزام الأمان الذي وضعته على خاصرتي،
وصورتي المنعكسة على زجاج النافذة،
والسحاب الذي داعب هيكل الطائرة،
والقهوة التي احتسيتها على أقل من مهل.
وحين وصلت إلى بلاد النسيان،
كنتِ الموظفة التي ختمت لي ختم الدخول
على إحدى صفحات الجواز الأخضر،
وكنتِ سائقة التاكسي الحسناء،
وموظفة الفندق التي تبتسم لجميع النزلاء.
كنتِ وسادتي، ولحافي، والنافذة التي يهطل المطر عليها باستمرار.
في بلاد النسيان،

استسلمت أخيرًا لحضورِكِ الطاغي،
وأصبحت أطلب وجبة غداء لشخصين،
وأقطع تذكرتين للسينما، وأحرص على أن أحجز مقعدين في الصفوف الأخيرة
حتى أتبادل القبلات معكِ،
بعيدًا عن تطفل الدخلاء.
وأنا أسير وحيدًا فوق أرصفة بلاد النسيان،
كانت عيناكِ ترمقني بنظرات تحدٍّ،
من خلف الأشياء،
وكانت شفتاكِ ترتل بلا صوت،
وكأنهما تقرأان عليَّ تعويذة ما:
«أنا لك وأنت لي، سأظل أحبك للأبد رغمًا عنهم..».
وأنا أسير وحيدًا فوق أرصفة بلاد النسيان،
اكتشفت أخيرًا أنه مهما ابتعدت عنكِ
فإنه لا مفر منكِ إلا إليكِ
لأنكِ فتاة تحتلني،
تستحل كُل شبرٍ فيني،

وستظل بداخلي،
أحملها معي أينما ذهبت وإلى الأبد!

تعالي،
وخبئيني داخل تلك العيون
وأوصدي علي الأبواب جيدًا
ولا تسمحي لي بالغياب،
حتى لو طلبت ذلك أنا!

كان يا ما كان في قديم الزمان،

وسابق العصر والأوان،

وبعد أن خلق الله الأرض

بثلاثة أيام،

أقامت الأشياء حفلة تنكرية،

وحضر الجميع فيها متنكرًا،

وفي إحدى زوايا الكهف الذي أقيم فيه الاحتفال،

كان أحد الحضور واقفًا،

يُدخن سيجارًا فاخرًا،

يرتدي قناعًا تنكريًا لافتًا للأنظار،

صُنع من الصدف والورود وبعض أوراق الأزهار،

وعلى ناصيته كان هناك حرفان:

«حُب».

تجمعت الأشياء حوله،

وطلبت من صاحب القناع أن يخلع القناع،

وحين فعل، اكتشفوا أنه السيد وداع!

تعالي نتخيل..

لو أن الزمان يعطيني فرصة واحدة،

ويعود بي قليلًا إلى الوراء،

إلى قبل أن ألتقي بكِ،

حيث يصبح بيدي القرار،

إما أن أبقى مكاني

وألقاكِ وأحبَّكِ ثم أواجه هذا الفراق،

وإما أن أرحل عن مكاني

لأوفر عن نفسي كل هذه الآلام.

ماذا تتوقعين أن أختار؟

آه، لو أن الحب قرار!

لو أن الزمان يرجع بي قليلًا إلى الوراء،

لكنت سأختار حُبكِ من دون أن أحتار،

فحُبكِ جعلني إنسانًا،

حُبكِ رسم لي أجنحة

وجعلني أحلق في السماء.

البارحة تفحصت كل رسائلكِ الورقية،
لا تزال كلماتكِ مكتوبة،
شاهدة على أنكِ كنتِ يومًا حاضرة،
ماذا أفعل بكل هذه الأوراق؟
رسائلك تبكي،
ترفض الأدراج،
ترفض الضوء،
ترفض أن أمسها،
لا تريدني أن أقرأها،
وكأن كل ما بداخلها أصبح سرًّا،
وكأنها أصبحت تعدُّني من الأغراب،
هل ألقاكِ صدفة في مكان
فتمضين بمحاذاتي
من غير أن تعيريني انتباه؟!
سيقفز منكِ قلبكِ الذي لا زال يحبني،
سيركض نحوي كما فرخ بطٍ نجح في الهرب من قفصه،
سيعانقني بشدة أمام الناس،

وحين تأمرينه بأن يعود،

لن يصغي لكِ،

وحين تغضبين عليه،

سيقول بأنه لا يخافكِ،

وحين تهددينه بأنك ستذهبين

سيلوح لكِ بيده أن تذهبي،

ثم سيمسكُ بطرف أصبعي،

سيقودني إلى مكان منزوٍ،

يقبلني على شفتي،

ويهمس لي في أذني:

«أنا لك وأنت لي».

خاطبك القادم، هو أول شخص أكرهه قبل أن ألقاه،
أول شخص أتمنى له الموت من قلبي،
أول شخص أشعر بأن في مقدوره سحقي
بإصبعه كما لو أني حشرة ألقى القبض عليها في بيته
متلبسة وهي تحاول سرقة فتات الطعام.
كيف لشخص غريب،
لم يلتقِ بكِ يومًا،
لم يتمناكِ،
لم يبلل سجادة صلاته بدموع التذلل والدعاء،
أن يأخذك له؟!
فقط في المجتمعات البائسة،
يستطيع الأقرباء أن يختاروا الزوج للفتاة،
مثلما يختاروا لها بقية الأشياء.
كل شيء خاضع للإجبار،
إلا الحُب،
ففي الحُب نحن وحدنا من نقرر، ونحن وحدنا من نختار.

سيظل طيفي معكِ رغمًا عنهم،
ورغمًا عنكِ لو تطلب الأمر!
وسأحلق بأجنحتي اللا مرئية فوق رأسك،
أحميكِ من كل شر،
أقبلكِ على وجنتيكِ،
أمسح بكفي قطرات العرق من على وجهك،
أحكي لكِ القصص قبل أن تنامي،
وأبقى على الكنبة الموازية أراقبك،
وحين تستيقظين فزعة من كابوس ما،
أهرع إليكِ، أسندك على ذراعي وأطمئنكِ:
«لا تقلقي أنا هنا».

نحن نتظاهر بأنه ليس
ثمة ما ينغص علينا حياتنا،
نتظاهر بأننا على ما يرام،
ليس لشيء،
عدا أننا لا نريد أن نثير شفقة الناس علينا،
فنظرات الشفقة تؤلم الأجساد،
وأنا رجل طاعن في الوداع،
أرهقته الأقدار،
وما عاد في استطاعته أن يحتمل المزيد من الأوجاع!

الفراق شخص سيّئٌ،
يوهمنا بأنه صديقنا المقرب،
يوهمنا بأنه سيبقى معنا دائمًا،
يوهمنا أننا سنكون بخير إذا ما استمعنا لنصائحه،
يوهمنا أنه الطريق الوحيد للنجاة،
يُقسم لنا أنه يريد مصلحتنا،
وأن كل من اتبعه رأى السعادة،
حتى إذا اقتنعنا به وسرنا معه،
اكتشفنا بأننا كنا ضحية لشخص محتال،
سرق منا أجمل أيام العمر وتركنا
كمعطف مهترئ سيظل إلى الأبد معلقًا على مشجب الذاكرة.

الشك هو الدليل القاطع على عدم ثقتنا بأنفسنا،
هو خوفنا الدائم من أن يفعلوا بنا
مثلما فعلنا بهم يومًا أو بغيرهم.
من يحمل حُبًّا صادقًا في قلبه لا يخون،

حتى ولو كان السبيل إلى الخيانة مضمونًا،
ومن يحمل حُبًّا زائفًا في قلبه يخون،
حتى ولو كان السبيل إلى الخيانة مستحيلًا.

في غيابك،

اكتشفت أن الضحك

ليس بالضرورة أن يكون دليلًا على السعادة،

بل في أحيان كثيرة يكون دليلًا على الشقاء،

فحين يمتلئ القلب همومًا،

يصبح الضحك سبيلًا للتنفيس عنه،

كي لا ينفجر في صدر صاحبه.

الحُب لا يصادر الحريات،

الحُب يمنح الحرية،

الرجل الذي يتحكم بامرأة باسم الحُب،

هو رجل لا يحب إلا نفسه.

حين تغادر الأنثى قلب رجل،

فإن قلبه سرعان ما يشيخ،

ويصبح كل شيء يحدث من حوله يزعجه.

قطرات الماء التي تتساقط من فتحة الصنبور تزعجه،

صوت عقرب ساعة الحائط يزعجه،
صوت حفيف أوراق الشجر يزعجه،
صوت هدير محرك الطائرة التي
تحلق على بُعد عشرين ألف قدم فوق الماء يزعجه،
صوت المذياع يزعجه،
صوت نبضات قلبه يزعجه،
صوت تدفق الدماء في عروقه يزعجه.
حين تغادر الأنثى قلب الرجل،
يصبح وحيدًا حتى ولو كان حوله الجميع،
ويصبح كل شيء عليه صعبًا،
حتى التنفس، تصبح عملية مرهقة لا تطاق!

رسالة إلى كل من يفكر بالزواج منكِ:

«قد تبدو جميلًا يا هذا، وأنيقًا، ومتألقًا،

لكن ليس بالقدر الذي يتيح لك الارتباط بها،

أنا فقط من كان يستحقها،

أنا الذي لم أخلق في الدنيا، إلا لعبادة الله، ثم لحبها.

لن أطيل عليك،

أعرف أن الخُطَّاب دائمًا لا يمتلكون الوقت الكافي لقراءة رسائل الغرباء،

بيد أني لست غريبًا، فأنا الرجل الذي سأكون مُخبأ في قلبها.

ولكن لا يهم، دعنا نضع خلافاتنا جانبًا، ونحدد يومًا آخر لتصفية الأحقاد.

دعني أتكلم معك فيما أود أن أخبرك به..

إن الظروف البائسة هي التي دفعتني أن أضع من أحب أمانة في عنقك.

وربما لا تريد أن تعرف، ولكني أجد نفسي مضطرًا لأن أقول لك:

إنه لأمر صعب هذا الذي أمر به،

إنه أشبه بأن تتخلى عن مدينتك التي كنت سلطانًا فيها،
إلى شخص غريب، لا تستأمنه لإدارة حظيرة بقر.

ولكن على كلٍّ،
حافظ عليها يا غريب،
وارفق بحالها،
واجبر كسرها وارحم ضعفها،
ولكي تسعدها، عليك أولًا أن تمحوني من ذاكرتها،
ورغم استحالة هذه المهمة، إلا أنك بمزيد من الصبر ربما تستطيع
إزالتي من ذاكرتها.

في الحقيقة لا يوجد هناك عاشق يتمنى من حبيبته أن تزيله من
ذاكرتها،
بل كل ما يتمناه العاشق حين تجبره الظروف على الفراق،
هو أن يجد له قبرًا يحتويه في ذاكرة من أحبها.
ولكن ماذا أفعل وحبي لها يتجاوز الأنانية؟!
ماذا أفعل وأنا أعد نفسي أبًا لها منذ أن أحببتُها؟!

أخيرًا.. إن أردت أن يبقى رأسك على جسدك،

وذراعك لاصقًا في كتفك،

ولسانك داخل فمك،

فلا تؤذها

.

.

.

تمنياتي لك بالموت العاجل».

أزور المكان الذي التقيتكِ فيه أول مرة،
أقف على النقطة التي كنت واقفًا عليها،
حين رأيتُ عينيكِ وخفق قلبي بشدة،
لم أبتسم لكِ آنذاك، هل تذكرين؟
ليس لأني لا أجيد فن الابتسامة،
بل خشيت أن أفتح فمي،
فيقفز إليكِ قلبي الذي كان متأهبًا حينها للقفز نحوكِ.

لم تكوني غريبة أبدًا،
حتى في اليوم الأول،
الذي التقيتكِ فيه،
كنت أشعر بأني
أعرف تينك العينين جيدًا،
وكأني عشقتهما في أزمنة أخرى،
ربما في عصور ما قبل التاريخ،
ربما في العصور الوسطى،
ربما في عصور الظلام،

ربما في عهد الخلافة الأموية،
وربما في عصور قادمة لم تأتِ بعد،
حين نظرت إليكِ أول مرة،
شعرت بأن العالم كله تواطأ معي كي ألتقي بكِ،
لماذا أيام الحب تمضي سريعًا؟
ولماذا أيام الفراق طويلة،
وتبدو وكأنها لا تريد أن تنتهي أبدًا؟!

رغم أني أعلم بأنه ليس لكِ قرار في هذا الرحيل،
إلا أنني وبطريقة ما،
لا أغفر لكِ،
فليس هناك عذر يبرر الغياب،
حتى وإن كانت الأسباب واضحة،
بيد أننا نتظاهر بقبول الأعذار،
فقط لنُسكت قلوبنا التي ستظل
تبكي إلى الأبد،

بقهر طفل تشبث بوالديه،
وأراد أن يذهب معهما،
إلى أن قالا له كي يسكتاه:
«حسنًا سنأخذك معنا».
ثم حين أحضر حذاءه وعاد
اكتشف بأنهما رحلا وتركاه.

قلتِ لي ذات مرة:
«علمني أن أفعل ما تحب، حتى تحبني أكثر».
حينها لذت بالصمت ولم أجبكِ،
ليس لشيء،
عدا أني كرجل شرقي،
لا أمتلك بداهة الحب،
لو عاد بي الوقت قليلًا، لقلت لكِ:
«ابقي معي، هذا كل ما يلزمكِ حتى أحبك أكثر».

مدينة الحُب هي المدينة التي حُرِّمت أرضها على النسيان،
هي فاكهة الانتحار التي نأكلها غير مبالين بالحياة،
هي مدينة الموت المشتهاة،
التي نظل نفتش عنها بعناد في خرائط الأقدار،
حتى إذا تجاوزنا أسوارها،
ورأينا بؤس سكانها،
عرفنا أن مدينة الحب لا يسكنها العقلاء.

الحب مادة صعبة،

ستخضعنا الأقدار يومًا

لإدراجها في جدول الحياة،

لنكتشف أنها مادة وضعت كي لا ينجح فيها أحد.

الاهتمام هو الشيء

الوحيد الذي قد يضمن

استمرار الحُب،

ولكن الإفراط في استعماله،

قد يتسبب بأعراض جانبية،

تؤدي إلى فقدانه.

ربما يكون الإهمال هو العدو اللدود للحب،

ولكنه في بعض الأحيان،

يجب استعماله كصعقة كهربائية،

تعيد الحياة إلى الحب حين يتوقف نبضه فجأة.

تعالي أحكِ لكِ، ما لم أجرؤ على الاعتراف به يومًا:

«حاولت عدة مرات النجاة من حُبك،

والهروب بعيدًا عنكِ،

ولكن عينيكِ دائمًا كانتا أقوى،

كلما حاولت الخلاص منهما،

كانتا تجذبانني بقوة نحو الأسفل.

كنت في حضرتهما مثل الغريق

الذي يفعل ما بوسعه كي ينجو،

ولكنه يستسلم أخيرًا للغرق،

لأنه لمح زعانف القرش تقترب نحوه».

في الغياب لم أفقدكِ يومًا،

وكيف عسانا نفقد أولئك الذين

نحملهم في قلوبنا،

كتعويذة، كلعنة، كوشم، كشيء لا يقدر عليه النسيان!

حين أقرأ كتابًا، أسمع صوتكِ يتردد داخلي

يقرأ الكلمات عني،

حين أكتب

أشعر بكِ تقفين خلفي، تراقبين كتاباتي،

حين أسمع نكتة أسمعك تضحكين،

حين أسمع لغزًا أسمعكِ تخمنين الإجابة،

حين أستمع إلى شاعر ما، أسمعك ترددين آخر كلمة في بيت

قصيدته،

حين أسمع حديثًا شريفًا أسمعكِ تستغفرين،

وفي كل يوم جمعة أسمعكِ ترتلين سورة الكهف بداخلي.

وكأننا ما افترقنا إلا كي تسكنيني،

البارحة سأل أخي ابنه الأصغر:

«كم أركان الإسلام؟»

سمعتكِ في داخلي وأنتِ تهمسين له: خمسة!

التفت ابن أخي نحوي، وأرسل إلي نظرة ذات معنى،

ثم التفت إلى والده، وقال بصوت يقلب فيه حرف السين إلى

حرف الشين: خمشة!

حين نجا ابن أخي من عقاب والده الذي كان يترصد أخطاءه

بالعصاة،

سمعتكِ تصفقين له وكأنك تهنئينه بالنجاة،
فابتسمت بحزن وآمنت أخيرًا أنني رجل مسكون بفتاة!

بت أحرص على أن أكون في كامل أناقتي
عندما أكون مع أصدقائي،
لأني أعلم أنكِ ستتجسسين عليّ من خلف أحد الحيطان المواربة،
أذكر ذلك اليوم حين سارت فتاة في الشارع،
كيف دفعتك الغيرة إلى كشف مخبئك،
والتوجه نحوي بسرعة فتاة رأت أغرابًا يقتربون من مضارب القبيلة.
أذكر حينها كيف أدرتِ وجهي بيديكِ اللامرئيتين إلى الضفة الأخرى،
وانتظرتِ حتى تتوارى الفتاة من أمامي وأنتِ تصيحين عليها بصوت غاضب:
«اذهبي، ولا تعودي للسير من هنا مرة أخرى».
تسبب صوتكِ الذي لم يسمعه غيري
في إسقاط دمعتين مالحتين على خدي،
وقبل أن أرفع يدي لمسحهما كانت يدكِ الحلوة تمسحهما عني.
ثم حين انعطفت الفتاة واطمأن قلبك بأنها ابتعدت
عدتِ إلى مكانك خلف الحائط الموارب،
لتكملي مهمة التجسس.

هناك شخص حين ننتهي من حُبه،
لا نشعر بأنه كان يومًا هنا،
وهناك شخص حين ننتهي من حُبه،
نتعب قليلًا حتى يتسنى لنا نسيانه،
وهناك من ننتهي من حُبه،
ولا يمكننا نسيانه إلا ببديل يساعدنا على النسيان،
وهناك شخص حين ننتهي من حُبه
ننتهي معه.

كيف أنساكِ،
وأنتِ الشخص الذي كلما نظرت إلى المرآة
شاهدته يخرج يده ويلوح لي من نافذة عيني؟!

الحُب شيء جميل،
ولكنه قد يضر إذا ما تم استخدامه بطريقة خاطئة،
لذلك يجب دومًا أن نبقيه بعيدًا عن متناول (الأطفال).

حين تصفعك الحياة صفعتها الأولى،
تتعلم أن تتوقف عن الاستماع لقلبك،
وتبدأ في الإصغاء إلى ما يقوله لك العقل.
وحين تصفعك الحياة صفعتها الثانية،
تتعلم أن الجميع سيرحل عنك،
مهما أقسموا لك بأنهم لن يفعلوا.

يلزمنا الكثير من الوقت حتى ندرك،
أنه من السهل جدًّا،
أن نلتقي كل يوم بشخص جديد،
ولكن من الصعب جدًّا أن نجد لمن أحببناه بديلا.

حين يتدخل العقل في الحُب،
فإن الحُب يصبح بلا طعم،
ولكنه يصبح أكثر قابلية للحياة.

قولي لي،
ماذا أفعل بالأحلام التي حطمها الغياب؟
وبالطفل الذي تمنينا أن نسميه حسام؟
وبالطفلة التي تمنينا أن نسميها سُمية؟
وبالكوخ الخشبي الذي اتفقنا على شرائه،
حين يتزوج الأولاد؛
لنعيد فيه أمجاد المراهقة،
ونعيش فيه الشيخوخة بسلام؟

علمني أستاذي الشرق أن لا أحزن لفراق أنثى،
علمني كيف أنسى،
كيف أقسى،
كيف أبقى على قيد الحياة،
علمني أستاذي الشرق
أن لا ألتفت إلى الوراء،
وأن أمضي مثلما تمضي الأيام،
وأن الفتاة تُستبدل بفتاة،

ولكن ماذا أفعل
وأنا الطالب الذي يأتي للصف متأخرًا،
ويجلس فوق الكرسي الأخير عند الجدار
ويحشو أذنيه بقطنة بيضاء،
وثيابه دائمًا متسخة،
وينسى إحضار الكتب،
ويكره أداء الواجبات؟!
ماذا أفعل وأنا الطالب الذي
لا يريد أن يكون متفوقًا
ولا يهمه النجاح؟!
ماذا أفعل وأنا الطالب الذي
يريد أن يصبح في المستقبل إنسانًا
يبكي من كل قلبه حين يفارق فتاة؟!

في غيابك،
تعبت وأنا أفتش عن شبيهٍ لكِ،
لا أحد يشبهكِ غيركِ،
حتى انعكاسك في المرآة لا يشبهكِ،
أنتِ الهاربة،
من إحدى روايات الخيال،
من قصص الجدات،
من أناشيد المطر،
من أساطير السندباد،
أنتِ الفتاة التي سأظل أروي عنها لأجيال وأجيال،
وأنا أعلم أن أحدًا لن يصدقني،
ليس لأنهم لا يؤمنوا بالمعجزات،
بل لأنكِ فوق احتمال البشر،
لأنكِ فوق احتمال الخيال.

لماذا ليس هناك ثمة دواء

من شأنه أن يخفف ألم الذاكرة،

ذلك الألم الذي يطمس ملامح المستقبل،

ويربط قلوبنا بحبل سري إلى ماضٍ لن يعود؟!

حين أدركت أنه الفراق،
ركضت بفزع طفلة
رأت رجالًا للتو يضربون والدها،
ورغم دموع الخوف التي في عينيَّ،
إلا أنني كنت أرى الطريق بقلبي جيدًا،
قفزت من فوق الأرصفة،
انعطفت مع المنعطفات،
قطعت الضفة الأخرى من الشارع،
وظللت أركض وأركض في طرقات كلما
ظننت أنها انتهت اكتشفت بأنها للتو تبدأ،
وحين توقفت أخيرًا،
ومسحت دموعي بمنديلي المبلل،
اكتشفت بأني أقف في ذات المكان
الذي التقيتكِ فيه أول مرة.

لا يوجد ثمة رجل
بإمكانه الكذب على أنثى،
فهن يستطعن قراءة الحقيقة كاملة في أعيننا،
بيد أنهن يتظاهرن بالغباء،
كي لا يخسرننا.

المرأة خُلقت لتغفر،

هي دائمًا تفعل المستحيل في سبيل أن تسامح من تحب،

تتجاهل الأخطاء،

تتغابى عن الحقائق الواضحة،

لا تجد غضاضة في التنازل عن حقوقها،

ولا تجد مشقة في الصبر حتى لو أدى الصبر إلى هلاكها،

هي لا تفعل ذلك ضعفًا،

وإنما تفعله لشعورها الذي يخبرها

بأن ذلك الرجل سيضيع من دونها.

ولكن حين تُمس كرامتها،

فإنها تطأ قلبها بقدمها ثم ترحل،

وحين ترحل المرأة،

فإنها لا تعود أبدًا.

يحدث أحيانًا قبل النوم
أن أقطع ورقة من دفتري،
وأكتب رسالة قصيرة،
أدسها لي تحت وسادتي
وفي صباح اليوم التالي،
وعلى سبيل المصادفة،
أمد يدي أسفل الوسادة،
وحين تتعثر أصابعي بالورقة،
أتظاهر بالمفاجأة،
فآخذها على عجل،
وأتفحصها بفضول رجل وجد رسالة داخل قارورة ملقاة على
شاطئ مهجور،
أقرؤها بدهشة، وكأنكِ أنتِ من كتبها ووضعها لي هناك وليس أنا!
«لا زلت أحدث صديقاتي عنك،
وكأنك لم تفارقني لحظة،،
لا زلت أتخيلك
الرجل الذي يقدمني إخوتي إليه،

لا زلت الرجل الذي
كان والذي سيُحبه كثيرًا لو أنه كان على قيد الحياة،
ولا زلتُ إلى الآن
أنتظر على لهفة موعد الزفاف الذي اتفقت عليه العائلتان.
حين أخبروني أنها النهاية،
لم أصدقهم،
وحين قالوا لي أن أنساك،
ضحكت من كل قلبي.
لو أنهم طلبوا مني أن أقفز حتى ألمس السماء،
لكان ذلك سيبدو لي أكثر منطقية وأسهل بكثير من أن أنساك.
تذكر دائمًا أنني أحبك
ولا تنسَ أبدًا أنني لك، وأنك لي».

سأكون معكِ أينما تذهبين،
وستشاهدينني في كل الأماكن،
في زاوية المنزل،
وفي حقيبة المكياج،
وفي سبورة الفصل،
وفي ممرات الجامعة،
وفي صوت الأستاذة
التي تأخذ أسماء الحاضرات،
وفي حذر عيني المراقبة
التي تراقب أثناء الامتحان،
وفي يد الطبيبة التي تطلب منكِ
أن تأخذي نفسًا عميقًا وهي تضع سماعتها على ظهرك،
وفي وجه الجندي المتعرق
الذي يقف وقت الظهيرة في منتصف الطريق لينظم سير العربات،
سأزوركِ كل يوم بعد أن تنامين،
أضع قبلة على خدك،
أغطي جسدكِ باللحاف كي لا تبردين،

وأهمسُ لكِ في أذنك:

«بسم الله الذي لا يضر مع اسمه الحنين».

مهما ابتعد أولئك الذين نحبهم،
سيظل مكانهم في القلب خاليًا حتى يعودوا إليه.
الحب الحقيقي لا يخفت ولا ينتهي،
ويظل مشتعلًا حارقًا في الحضور والغياب.

أليس الحُب في عرفهم جريمة؟
هاتِ يدكِ إذن
وتعالي نرتكب حُبًّا كبيرًا،
دعي الأغبياء يلاحقونا،
لا أهتم..
سنكون بالحب أسرع،
فالحُب يجعلنا أخف،
سنهرب منهم بعيدًا،
إلى حقول القمح،
وحين يُنهكنا الضحك،
نسقط في أيديهم،
لا أهتم..
دعيهم يحبسونا في زنزانة القرية
ويحكموا علينا بسجن مؤبد،
لا أهتم..
سنقتسم هناك طبشورًا،
نرسم به على الحائط نافذة سرية،

نهرب منها كلما اشتقنا للحرية،
وحين نمل الناس والعيون التي تراقبنا من خلف الحيطان،
نرسم بالطبشور على الحائط سفينة كبيرة
نصعد أنا وأنتِ عليها،
ثم نرسم بالطبشور طوفانًا عظيمًا يُغرق بقية سكان الأرض.

مؤلم هو أن أتخيل مستقبلي
مع امرأة أخرى!
أظل أردد اسمها في عقلي مرة تلو الأخرى
قبل أن أنطق به كي لا أناديها باسمك،
كم هو القدر مؤلم
حين يأخذ منا أشخاصًا،
لم نتخيل يومًا أن نعيش بدونهم،
ويضع في طريقنا أشخاصًا،
لم يطرقوا أبواب أحلامنا يومًا!

الحب عنصري من الدرجة الأولى،
هو يجعلنا دائماً
متحيزين لمن نحبهم،
الحب يجعل من الحبيب
أجمل مخلوق في الدنيا،
ومن يرى أن ثمة أجمل من الشخص الذي يحبه
فهو إنسان ما جرب الحُب قط.

هناك شخص حين نفارقه،
يصبح القلب بعده غير قابل للحُب مرة أخرى!

شيء يُغرق غير البحر؟
عيناكِ.

شيء يحرقُ غير النار؟
فراقك.

شيء يقتل غير الرصاص؟
عطرك.

شيء يُسكر غير الخمر؟
عندما تقولين لي أحبك.

شيء لا ينتهي؟
حُبي لكِ.

شيء ينمو ولا يتوقف؟
حنيني إليكِ.

شيء أريده غيركِ؟
أنتِ.

ويحدث أن أضع سماعة هاتفي المقفل في أذني،
حتى يتسنى لي إذا سرت في الطرقات
أن أتحدث مع طيفكِ الذي يتبعني كما ظلي
من غير أن يقول الناس عني أني مصاب بالجنون!
يحدث كثيرًا أن أدخل معه في نقاشات حادة
كما كنا أنا وأنتِ نفعل في السابق،
ويحدث كثيرًا
أن يغلبني بالمنطق في نهاية المطاف
يحدث أن ألعب معه الشطرنج
ويهزمني في أقل من أربع حركات.
بالمناسبة،
منذ أن فقدتكِ
وأنا لم أعد أخشى الهزائم،
ولم أعد أهتم للخسارات،
ربما لأنه حين نفقد الحُب،
تصبح خسارة الأشياء الباقية أمرًا بسيطًا،
وتصبح لدينا مناعة قوية ضد بقية الأحزان.

منذ رحيلك،
بات النوم سبيلي للنجاة
وبتُّ آكل بالقدر الذي يُتيح لي الحياة،
أصبحت أكثر انطوائية
وأكثر كرهًا للناس،
وكأنهم جميعهم كانوا السبب
في هذا الفراق.

كم كان سيكون جميلًا أن أنجب منكِ
أطفالًا حين يكبرون
تصبحين بجمالك وكأنك أختهم الصغرى!
ثم وكاعتداد بفتنتكِ وشبابك،
لا تناديني باسمي كأي زوجة تنادي زوجها،
بل تناديني كما ينادوني الأولاد:
«بابا».

ابقي في داخلي ولكن بصمت
فصوت خطواتِ قدميكِ يزعجني.
أريدكِ،
كشيءٍ بدأ وانتهى،
كبرقٍ ومض في السماء،
كشرارة قفزت إلى الماء،
كفقاعةٍ انفجرت حين لامست الهواء.
أريدكِ،
كذكرى،
لا كجسدٍ حي،
يتمشى في داخلي كيفما يشاء.

عندما أتذكر أنكِ ربما لن تكوني لي،
يصبح لوجهي خصائص الرماد،
وأتوه كما لو أني قبطان في منتصف البحار،
انزلقت قنينة حبر كاملة فوق خرائطه،
وما عادت بوصلته
تشير إلى جهة الشمال!

عندما أتذكر أنكِ ربما لن تكوني لي،
أصبح كما مركبة فضائية،
أضاعت طريق العودة إلى الأرض،
وستكمل ما تبقى لها من عُمر،
عائمة في ظلمات الفضاء.

هل تذكرين باقة الورد الحمراء

التي بعثت بها لكِ

بعد ثمانية أيام من خِطبتنا؟

أذكر أني تركت لكِ رسالة بين ورودها،

كتبت عليها:

«هذه الورود البيضاء لكِ».

في ذات الليلة تلقيتُ

منكِ رسالة على هاتفي المحمول،

كتبتِ لي فيها:

«لطيفة جدًا كانت معي ورودك الحمراء!».

اتصلت عليكِ حينها،

وقلت لكِ:

- تقصدين ورودي البيضاء؟

صمتِ قليلًا حينها، ثم قلتِ وأنتِ تحاولين كبح ضحكاتِك:

- عزيزي، هي حمراء وليست بيضاء.

قلت لكِ حينها بإصرار طفل:

- ولكني متأكد من أن ورودها بيضاء.

وحين لم يعد بإمكانك كبح ضحكاتك أكثر، ضحكتِ ثم قلتِ:

- في عيد ميلادك القادم، سأقدم لك نظارة هدية، كي تميز الفارق بين الألوان.

قلتُ لكِ حينها ما دفعكِ للخجل وإغلاق السماعة في وجهي، كعادتكِ حين تخجلين ولا تجدين كلامًا تقولينه لي:

- أنا متأكد من أن باقة الورد التي جلبتها لكِ كانت بيضاء، ولكن ربما أحمرت ورودها خجلًا حين رأتكِ...

الفراق يجعلنا
نسمع أصوات الغائبين،
ونشاهد ملامحهم في كل مكان،
وبوضوح أكثر من أي يوم مضى،
وكأننا نشاهدهم عبر شريط فيديو عالي الجودة.
هو يجعلنا
نسمع أصواتهم،
في كل صوت ناجم عن شيء:
في صخب الناس،
في زخات المطر،
في أزيز الرياح،
في حفيف الانتقال من صفحة إلى صفحة،
في صرير القلم عندما يخط فوق ورقة،
الفراق يجعلنا أمواتًا، ولكن على قيد الحياة!

حين ينتبه إليَّ أصدقائي وأنا أقترب منهم،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين أفيق من النوم وتشاهدني أمي،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين أقف في الطابور مع إخوتي أنتظر الدور كي أقبل جبين أبي،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين يشرح لي البائع حول منتج ما،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين يمد لي فقيرٌ يده يطالبني بصدقة،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين يسألني عامل المحطة أي نوع من الوقود أريد،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
حين ينظر إليَّ المذيع عبر شاشة التلفاز،
أخفض رأسي وأنظر إلى الأسفل.
أفعل ذلك لأني أغار عليكِ،
فأنا لا أريد أن ينظر أحد إلى عيني
فيختلس النظر إليكِ.

وأعوي وحيدًا،
فوق صخرة الوداع
كما ذئب جريح،
نجح في الإفلات من أقفاص الصيادين،
وقطع الطريق الطويلة
يعرج بثلاث أقدام،
وأقدام لانهائية ترسمها له الحنين،
حتى إذا وصل أخيرًا إلى مخبأ القطيع
اكتشف أنهم تخلوا عنه وغادروا المكان!

عندما أتذكرك،
يصبح صوتي
مثل جؤار سفينة حزينة،
تطلق صرخاتها الأخيرة،
قبل أن تغرق في قيعان البحار،
أحبك وأريد أن أكرهك في آن،
العودة إليكِ شبه مستحيلة،
والنجاة منكِ انتحار!

كنت أحب أسألتك الطفولية،

وأحبكِ أكثر حين تقتنعين بأجوبتي،

التي ليس لها أي منطق أو أساس.

أذكر حين سألتِني ذات مرة،

لماذا يصيح الديك عند الفجر؟

قلت لكِ حينها:

- كي يُفيق الشمس بصوته!

قلتِ:

- ولماذا يصيح عند الغروب؟

قلت لكِ:

- كي ينبئَها بأن موعد نومها قد حان!

وعلى الرغم من أننا كنا نتحادث عبر الهاتف،

إلا أنني كنت أشعر بكِ وأنتِ تهزين رأسك موافقة،

على كُل ما أقوله لكِ وكأنكِ طالبة مجتهدة،

تأخذ من أستاذتها المراجعة النهائية للامتحان.

قلتِ لي:

- لماذا يتوارى القمر خلف السحاب؟

قلت لكِ:

- كي لا يراه أحد وهو يبدل بيجامته!

قُلتِ لي وعلى ماذا يشير شكل الهلال؟

قلت لكِ:

- الهلال هو ابتسامة الفضاء لسكان الأرض!

- وهل هناك مخلوقات في الفضاء؟

- نعم، أنا من سكان الفضاء!

- ولماذا جئت إلى الأرض؟

- لأني رأيت في عينيكِ الحياة!

أذكر أني قلت لكِ حين قدمت إليكِ ذلك العقد الذهبي،

بمناسبة انتقالك في الجامعة من مرحلة إلى مرحلة:

- البارحة رميت خطافًا إلى أحد النجوم،

وظللت الليل بطوله أتسلقه،

وحين أصبحت بمحاذاة القمر،

تأرجحتُ في السماء حتى قفزت إليه،

سرقت من طرفه خيطًا وصنعت لكِ به هذا العقد.

أذكر أن الجميع كان يضحك عليكِ،

حين كنتِ تخبرينهم بقصة صعودي إلى القمر،
ولكن الجميل في الأمر أنكِ
كنتِ لا تكذبينني
وكنتِ دائماً تصدقين الخبر.

عيناكِ درب طويل محفوف بالأنهار والشجر،
عيناكِ بلاد أخرى على الناظر إليهما أن يردد في قلبه دعاء السفر.

في عينيكِ جيوش المسلمين تقاتل حتى النصر،
في عينيكِ أعاد المسلمون فتح بلدان ما وراء النهر!
في عينيكِ عادت إلينا الأندلس،
وأعاد صلاح الدين إلينا القدس،
في عينيكِ يا سيدتي قرأت روايتي من البداية حتى النهاية،
لم يكن الغياب مكتوبًا، فلماذا جد؟
لم يكن الفراق ضمن حبكة الرواية، فلماذا جد؟!
لم يكن الوداع أحد شخوص الرواية، فلماذا جد؟!
في عينيكِ رأيت مولدي ووفاتي،
رأيتني أولد حين قلتِ لي أول مرة «أحبُك»
ورأيتني في النهاية أموت بين ذراعيكِ، فلماذا جد؟!

ماذا لو لم نفترق
وكان مساء اليوم هو الموعد
الذي اتفقت عليه العائلتان للزفاف؟
أتخيل فستانك الأبيض الذي خاطته لكِ السحاب،
وشعركِ الأسود الذي تُشرق منه الظلال،
وجمالك اليوسفي الذي لا يضاهيه في الدنيا جمال!
تعالي أقطف لكِ قمرًا ونجمتين من السماء،
أصنع لك بهم أقراطًا، وحُليًّا للمساء،
تعالي نتزوج كي يعم السلام الأرجاء،
كي يتعهد الرصاص بعدم إراقة الدماء،
كي تنبت الأزهار على فوهات الأسلحة،
ولكي يضع الجليد قبلة ما قبل النوم على جبين النار.

في داخلي كهف مظلم،
تسكنه امرأة نزقة،
شعثاءُ المنظر،
تدعى الجدة كرامة،
نادرًا ما ترضى،
ودائمًا هي غاضبة.
عندما تصرخ
تقطع شعرها،
وتمزق ثيابها.
العصا الطويلة لا تفارق يدها،
تضربني فيها بقسوة،
حين أسامح من أخطأ في حقي،
أو حين أقلل يومًا من شأن نفسي،
هي امرأة مُسنة قصيرة،
ذات مزاج متقلب،
السيجار البني لا يفارق شفتيها،
وتحت عينيها ترتسم دوائر بنفسجية،

هي تكره الراحلين ولا تقبل لهم أعذارا،
وتبصق على وجهي حين تلمحني أبكي على شخص غاب.
عندما تنبهت لي وأنا أبكي عليكِ
وقفت تتأملني قليلًا بملامح لا تدل على شيء،
ثم فجأة
بصقت من شفتيها السيجار،
وألقت من يدها العصى،
وحين أصبحت خلفي،
ربتت بيديها على كتفي،
وحين التفت إليها،
والتقت عيني بعينيها،
لوت شفتها السفلى،
ودست في منتصف رأسي قبلة،
ثم همست لي في أذني
ورائحة السجائر تحرق أنفي:
- لا بأس عليك يا طفلي!

علميني كيف أقيم حفلة زفافي بامرأة أخرى،
من غير أن ألمحكِ حاضرة في الأشياء.
علميني كيف أقفل على نفسي
غرفتي وأقترب من المرأة التي يقال إنها زوجتي،
من غير أن ألمحكِ حزينة،
تختلسين النظر إليَّ من أسفل الباب.
علميني كيف أسافر معها على متن الطائرة
من غير أن أحجز لكِ مقعدكِ المفضل عند النافذة.
علميني كيف أقود السيارة وهي إلى جانبي،
من غير أن ألمحك عبر المرآة الأمامية
وأنتِ تجلسين على المقعد الخلفي مصالبة يديكِ
وتنظرين نحوي بعينيكِ المشاغبة.
علميني كيف أصطحبها إلى المطعم،
وأطلب لها وجبة العشاء
من غير أن أطلب لكِ وجبتك المفضلة.
علميني كيف أكون قاسيًا، كيف أكون جاحدًا، كيف أكون ناكرًا
للعشرة،

حتى أستطيع أن أخرج طيفكِ من بيتي،
علميني كيف أقرأ اسم امرأتي في دفتر العائلة،
من غير أن أتعثر بحروف اسمك الأربعة.
علميني كيف أقول لها كلامًا لم أقله لكِ.
علميني كيف أبقي ذاكرتي في مأمن منكِ.
علميني كيف أعيش من دون أن أُحبكِ!

تعالي نتخيل،

أنا في الخامسة والثمانين،

أجلس في صالة المنزل،

فوق كرسي خشبي هزاز،

وحولي يجلس الأحفاد،

ينتظرون أن يحكي لهم جدهم

قصة الحبيب الذي فارق حبيبته وظل يحملها في فؤاده إلى أن مات.

تُرى، هل سيعرفون يومًا أن بطل تلك القصة

هو نفسه الجد الذي يجلس أمامهم فوق الكرسي الخشبي الهزاز؟!

وهل سيعرفون يومًا، أن بطلة تلك القصة هي نفسها من كان من المفترض

أن تكون جدتهم لو أن القصة انتهت على ما يرام؟!

ليت الزمان يعود بي إلى الوراء

وأراكِ وأنتِ طفلة تنامين فوق سرير من الخيزران!

أدنو منكِ،

أقبلك،

أهمس لكِ:
أنا من ستحبينه في المستقبل،
أنا من سيخطبكِ،
أنا من سيعدكِ أن يكون لكِ الزوج والأمان،
ثم أنا من ستغدر به الأيام!

لفرط ما أحببتكِ،
لم أصلِّ في أمركِ صلاة الاستخارة،
لأني كنت أخشى أن يكون في قربي منكِ
شرٌّ في المستقبل؛
فيصرفك الله عني!

حين كنت أغضب منكِ وأغيب لأيام
لم يكن غيابي بسبب الغضب،
أو الزعل،
أو دافع الانتقام،
ولكني كُنت أغيب عنكِ
لأختبر قدرتك على العيش بدوني،
كأبٍ يختبئ عن طفلته الصغيرة في المتجر،
حتى إذا رآها استشعرت الضياع
وبدأ وجهها يتخذ وضع البكاء،
ظهر لها من خلف أحد الحيطان،
يسير إليها وهو يضحك:
«لا تبكي، والدكِ هنا يا فتاة»

الحُب يجعلنا نتقبل الآخر كما هو من دون تغيير،
ويجعلنا نتغاضى عن أشياء كثيرة قد لا تعجبنا،
هو يجعلنا أكثر تقبلًا، ليس مع من نحب فقط،
بل حتى مع بقية الناس،
لأن الذي يعيش قصة حُب
لا يمتلك وقتًا لتتبع الأخطاء
أو لملاحظة العثرات.
من يعش قصة حُب،
يصبح يرى الأشياء من خلال قلبه،
والقلب يرى الجمال في كل الأشياء.

ولأن الرياح تحمل صوتك كل ليلة
وتدسه في أذني؛
فيصبح في مقدوري
أن أسمع اسمي يتردد في جميع دعواتك السرية.
ولأني على يقين بأنه ليس ثمة أمنية لكِ
إلا وكنت حاضرًا فيها،
ولأني أعلم أن مستقبلكِ يتعذر من دوني،
ولأني أعلم بأنك تحبيني أكثر من أي شيء آخر،
ولأني أدرك أن حياتك من دوني تكاد تكون مستحيلة،
فأنا أتمنى أن أعود لكِ،
وأن أبقى معكِ طوال عمري،
وأن لا أفارقكِ إلا إلى قبري...

الفراق هو نملة عنيدة،
تظل تسرق أعمارنا على أقل من مهل،
لنتفاجأ بعد أعوام،
بأننا قد متنا منذ زمن!
ورغم موتنا ذاك،
إلا أننا نظل على قيد الحياة،
نلتقي بأصدقاء جدد،
نذهب إلى أعمالنا،
نصطنع ابتسامات قد تبدو للوهلة الأولى أنها صادقة،
نلقي الدعابات أحيانًا،
نشارك الناس همومهم وأفراحهم،
نغني، نرقص،
ولكن لا أحد غيرنا يعلم بأننا جثث،
تنتظر موعد دفنها
لتكمل بهدوء بكاءها هُناك.

إذا كانت نهاية كل حب فراق،
فسأفتش في المرة القادمة،
عن حبيب لا يفارقني،
عن حبيب لا يودعني،
عن حبيب لا يغيب،
عن حبيب لا يفنى،
عن حبيب لا ينتهي،
عن حبيب لا يصادره مني أحد،
عن حبيب يبقى معي دائمًا وإلى الأبد.
الله لا إله إلا هو وحده الإلـه الصمد،
هو من يستحق منا كل الحب،
هو وحده الذي يبقى حين يرحل الجميع
هو وحده من يبقى معنا حين لا يبقى أحد.

أخيرًا أنتِ هي المعركة الوحيدة
التي أفتخر بأني هُزمت فيها.

لا زلت جالسًا في شرفة البيت، فوق الكرسي الخشبي العتيق، الذي اعتدت أن أحادثكِ وأنا أجلس فوقه. تُشير الساعة إلى الرابعة وأربع دقائق بعد منتصف الفراق.

أشعر بشيء من الألم عند أسفل ظهري، وبالكثير من الحرارة في عيني، وألمٍ طفيف في أصابع يدي، أظن بأن هذا البوح يكفي.

يجب أن أحتفظ ببعض الكلام في صدري.

أعيد قلم الرصاص إلى مكانه الأول خلف أذني، أطفئ الشمعة التي شارفت على الانتهاء،

أرتب الأوراق المتناثرة أمامي ورقة فوق ورقة، أختلس النظر من زاوية عيني، لا يزال طيفكِ يقف خلف كتفي يختلس النظر إلى ما أكتبه لكِ.

آخذ نفسًا عميقًا، أعود مرة أخرى لمشابكة يدي الباردتين، أرفع رأسي نحو السماء، أردد الترنيمة ذاتها التي رددتها قبل أن أشرع في الكتابة،

بنفس الصوت الخافت الذي يشبه ضوء القمر الفضي الناعم الذي لا يزال يضيء الأرجاء:

«يا أيتها الأقدار،

صالحيني ولو مرة،

فقد أخطأ الفراق بحقي كثيرًا،

هذا الكتاب رسالة إلى تلك الغائبة،

تلك التي لم أعد أعلم عن أمرها شيئًا،

تلك التي ماعاد الوصول إليها ممكنًا،

يا أيتها الأقدار،

دعيها تمضِ بمحاذاة هذا الكتاب،

دعيها تلتفت إليه،

دعيها تتعرف على صورتي المطبوعة على غلافه،

دعيها تُمسك به،

وتقرأه لتعرف أنها في غيابها كانت دائمًا معي،

وأني أحببتها ولا أزال وسأظل أحبها إلى الأبد».

وحين انتهيت من ترديد الترنيمة، التفت إلى طيفكِ،
وحين التقت عيني بعينه لم يختفِ فورًا كما كنت أظنه سيفعل، بل
ظل ينظر إليَّ قليلًا، ثم حرك شفتيه وقال لي
بصوت صامت يشبه الدخان الذي لا يزال يتصاعد من فتيل
الشمعة:

«أنا لك وأنت لي».

ثم أختفى، وبعد قليل من اختفائه، سمعت الرياح تردد خلفه:

«أنا لك وأنت لي».

حين انتهيت من ترتيب الأوراق، جاء الوقت لكي ألتقط لنفسي الصورة التي سأضعها على غلاف الكتاب.
حملت أوراقي، ذهبت إلى غرفتي، ووضعت الأوراق داخل الصندوق الخشبي الذي أخبئ فيه أشياءك.
بدلت الكنزة الشتائية التي كنت أرتديها، بلباسٍ أعتقد أنه سيكون مناسبًا للصورة.

اجتذبت الكاميرا الرقمية، أوقفتها على القوائم الخاصة بها، أزحت الستارة قليلًا كي أسمح لضوء القمر بأن يضيء الغرفة.

ضبطت مؤقت الكاميرا على تسع ثوانٍ، كبست على الزر، ثم وقفت أمام العدسة.
وعند الثانية الرابعة، عاد طيفكِ يقف مرة أخرى خلفي،
لم ألتفت نحوه، ولكنني أختلست النظر إليه من زاوية عيني.

ورغم أني عاودت النظر سريعًا وبلا وعي صوب العدسة، إلا أنني تمكنت من رؤيته جيدًا

كان جميلًا كطفلٍ يتثاءب، أنيقًا كحفلة ملكية،
وهو يقف خلف كتفي الأيمن، مرتديًا فستان الزفاف الأبيض
الذي اشتريتِه مؤخرًا، والذي كان من المفترض أن ترتديه لي قريبًا
لو أننا لم نفترق.

حين انتهيت من أمر الصورة، أعدت الكاميرا إلى مكانها، ثم أسدلتُ الستارة، وتمددت فوق السرير، أعتقد بأني سأنام طويلًا، وسواء استيقظت أو لم أستيقظ، تذكري أنني:

«آسف،

ولن أنساكِ

وسأحبُّك بكل حواسي،

وأحملكِ في قلبي دائمًا،

وستبقين رفيقة الروح إلى الأبد».


COZMO BOOKS GROUP
مَدينةُ الحبْ
لا يسكُنها
العقلاءْ
فكرة
Fakera.CoM
رواية
أحمد آل حمدان